القصة الثانية والعشرون ـ ندم في غير أوانه

وئام الوهابي

كانت وستظل ذكرى عالقة في سويداء عقلي،كيف لا وكانت تلك البداية لأعيش في ظلام دامس لا يقوى مخلوق بشري في اعتقادي على إخراجي منه.

كنت في طفولتي فتاة غامضة،تميل للبقاء منفردة بعيدة عن ضجيج هذا العالم،بما فيهم عائلتي. كنت أجد متعة عظيمة في قراءتي للكتب،ومجالسة مرآتي الصديقة،قد يبدو ذلك غريبًا للوهلة الأولى،لكن كانت تلك المرآة الصديقة المثاليه في حياتي البائسة،كان لا يمضي يوم إلا وأحدثها،كنت أحسها تجيبني عن كل سؤال أسأله، وتبادلني عبارات الحزن عندما تتوفى شخصية من شخصيات الرواية الحزينة التي لا مست قلبي،كانت أقرب إلي حتى من والدتي نفسها، وللصدق كان ذلك خطأ عظيمًا لا يوازيه شيء وليتني لم أقترفه.

كنت جالسة كعادتي في غرفتي أكتب في مذكراتي شيئا مما خالج صدري،حتى سمعت صرخة مدوية امتد صداها في كل أرجاء المنزل،أسرعت لأرى مصدرها،فقد أحسست بسيف اخترق غشاء قلبي الصغير،لم أعرف سبب ذلك،كان شعورا مجهولا علي مما جعلني أسرع في خطواتي كي أصل بسرعة لمصدر الصوت،لكن ليتني ما وصلت،لقد فقدتني تماما في تلك اللحظة،لقد خسرت أغلى كنوز الدنيا،والهدية الأعظم من الله،لكنني لم أحافظ عليها،لم أحاول ذلك يوما،اقتربت بخطوات بطيئة

جـدًا،كانت الصـدمة قـد عطلـت كـل حـواسي وأطرافي،كنـت أجاهـد للوصـول إليها،وللاقتراب منها،لم يسبق لي أن اقتربت منها لتلـك الدرجـة،كنت بعيـدة عليهـا رغم كوننا نتشارك السكن،لا أعرف كيف أصف ذاك الشعور الـذي تخطـى مراحـل الألم بـدرجات،جثوت عـلى ركبتـي أمامها،حضـنتها بقـوة كـما لم يسـبق لي أن فعلت،أصبت بحالة من الهيسيريا،أضحك وأبكي في آن واحد.حاولت النساء بشـتى الطرق إبعادي عنهـا،لكنني أبيت،كنـت بحاجـة أن أبقـى بقربهـا،أن أعـرف شـعور الأمان الذي طالما سمعتهم يتحدثون عنه،لا يعقل أنها تركتني بهـذه السـهولة،أيعقل أنها لم تحبني يوما؟ألهذا تركتني للأبد؟لا،لقد كنت لا أكترث لأمر أحد؛ لهذا فضـلت أن تبتعد عني.

ندمت في تلك اللحظة على كل سنة أمضيتها بعيدة عنها،لكن،أينفع النـدم الأن؟لقـد فات أوانه،لم تمض بضع ساعات حتى سمعت صوت سيارة نقل الموتى،أتـت مبكـرا لتمنعني من الاقتراب من محبوبتي،

ولتأخذها بعيدًا عني،حيث لن أتمكن من احتضانها،

ما أقسى هذا العالم!!

حاولت منعهم من أخذها وصرخت:

-دعوا والدتي....إنها لم تمت،يستحيل أن تتركني وحـدي....هي تحبنـي... وسـتبقى معي.

ظننت أنهم سيتركونها معي،لكن عوض ذلك،فكل ما فعلوه هو كونهم حقنوني بـإبرة منومة.استيقظت في صباح اليوم التالي وكل جزء من جسدي يؤلمني،كنـت في الثـواني الأولى غريبة عن نفسي حتيفلم أعرف لا من أنا،ولا ماذا أفعل هنا،أو حتى سبب ذاك الألم الذي أحس به،لكن سرعان ما اسـتعدت ذاكـرتي التـي تهـوى تدميري،وبـدأت أبكي بكاءً شديدا لا مثيـل لـه،نظرت إلى صـديقتي الوحيـدة،كنت أخالهـا تنظـر إلي بأسى،في لحظة ما سمعتها تحدثني:

-كنـت دائـما أخـبرك يـا نـرجس أن الأشـخاص القـريبين منـا لا يجـب أن نبتعـد عنهم،خاصـة والـديك،إنهما نعمـة مـن الله،وأنـت لطالمـا كنـت تخبرينـي أنهـا نقمة،...أترينالوضـعالذيآلتإليهحالكالأن،لقدأخبرتنيصباحيومأمسأنكتحسينأنكسـتخ سرينماتبقيمنك،وهاقدصدقحدسك.

-صـدقيني،في هـذه اللحظـة أحـس أننـي ضـائعة،كأنني أعـيش كابوسًـا يهـوى أن يقتلنـي،...ليعدهناكمنيرغبتحملي،لقدخسرتوالدتي،حتيوسادتيأحسـهاماعادتتقوى على تحمّلي،...أخافأنيأتييومولاأجدكبجواريأنتأيضا.

في تلك اللحظة سمعت والدي ينـاديني،لم أعـرف أأجيبـه أم لا،لكـن تحـدث فجـأة شريكتي في السكن:

-ألم تتعلمي من أخطائك،إنه والدك،وقريب منك،مهما كان قاسـيا معـك،كوني ابنتـه التي يفخر بها، والتي تطيعه،...لاتهوريفتخسرينه كما خسرت والدتك.

كانت كلماتها كفيلة بإيقاظ ضميري الذي أوشك ان يصاب بإحدى اللعنات التي ستؤدي إلى نومة للأبد،أسرعت إليه،فقبلت يده بحنان لم يسبق لي فعله:

-إنه والمعروف في عاداتنا أن أغراض الميت نتصدق بها،...أعرفأنكاشتقتلوالدتك،لهذاذهبيوضبيأغراضها.

لا أعلم بما أحسست في تلك اللحظة أنني سأفقد ماتبقى من رائحة والدتي،لكنني لململت شتات نفسي،ورحت أنفذ مطلب والدي، بدأت أجمع ملابس والدتي ومع كل غرض من أغراضها أعانقه لأشم رائحتها،فقط لأستشعر وجودها بجواري،وفي تلك اللحظة سقطت ورقة كانت مطوية بعناية،أمسكتها بأناملي الصغيرة،من رائحة العطر الذي كان لها،عرفت أنها لوالدتي،بدأت بقراءتها والدموع تنهمر من مقلتي: »

حبيبتي الصغيرة،...أجل أنت حبيبتي التي لطالما تمنيت أن أستطيع مناداتها بذاك الاسم وأنا لازلت على قيد الحياة،لكن للقدر رأي آخر،كنت أعلم أن تلك العلاقة المتوترة التي تجمعنا أنا سببها أعترف،منذ أن علمت أنني أحمل في بطني طفلة صغيرة،لا أعلم كيف تملكني الحقد تجاهك،....لا تكرهيني يا حبيبتي، لقد كنت تكبرين أمام عيني دون أن أقوى على لمسك حتى،كان الخطأ كله خطئي.كنت عندما أرى الفتيات يحضنَّ والدتهن بكل حب وحنان، أتخيلنا أنا وأنت مكانهن،لكنها ظلت مجرد أحلام تزور مخيلتي.

أتدرين ياطفلتي حاولت كثيرًا الاقتراب منك،غير أنه كان هناك حاجز يقف بيني وبينك،كنت دائما أسمعك تبكين لكنني لم أستطع يومًا المجيء والتخفيف عنك بقبلة على الجبين،وحضن طويل تغفين فيه بأمان،لقد كنت أسمعك دائما تحدثين مرآتك الصغيرة،للصدق أحسستها أخذت مكانيولعبت دور والدتك، وانا كنت المرأة الغريبة التي لا تمتّ بصلة لابنتها.

وردتي النرجسية،ستقرئين هذه الرسالة بعد أن تكون المنية قد وافتني،مهما حدث يا صغيرتي لا تكرهيني....فأنا أحبك بقدر الحب الذي تكنينه لمرآتك.أود ان أطلب منك طلبا،لا ترفضيه يا بنتي،أود أن تأتي كل يوم لقبري وتحكي لي تفاصيل يومك،أود أن أنال ذاك الشرف الذي لم أحظ به وأنا حية ترزق،إنني أغار من صديقتك تلك.

لاتضحكي علي لكنني أحبك فوق ماتعنيه هذه الكلمة،ليتني أوتيت الشجاعة الكافية لأصرخ بأعلى صوت باسمك حبيبتي.

****

كانت رسالة والدتي كفيلة بإيقاظ مشاعر الشوق والحنين لها،أتمنى لو تعود لأخبرها عن ذاك الحب الذي أكنه في قلبي لها وحدها،علينا المحافظة على الأشخاص الغالية على قلوبنا،فقد ترحل في أي وقت،ولن ينفعنا الندم آنذاك. »

*****